جدليّة الإسلام والمعاصرة

محمد يوسف عدس

كتبت فى هذا الموضوع منذ سنوات مستوحيًا مضمون دراسة مستفيضة لفيلسوف الإسلام "على عزت بيجوفيتش" ، كتبها مبكّرًا ، فى سبعينات القرن العشرين ، ثم اختفت ضمن مجموعة من المقالات الهامة الأخري ، فى خِضَمّ صراعه مع النظام الشيوعي الذى حكم يوغسلافيا عندما كانت البوسنة جمهورية أسيرة فى الاتحاد اليوغسلافي .. حتى اكتشفتها أسرته ، لتستقر عند سفير البوسنة فى قطر ، الذى قام بترجمتها ونشرها فى كتاب ، وصلتنى نسخة منه عن طريق الصديق الراحل الدكتور عبد العظيم الديب..

كثيرًا ما يتشدّق الجُهّال والكارهون للإسلام ، بأنه دين معادٍ للمعاصرة .. وقد تجلّى هذا الزعم مؤخّرا عند دعيٍّ أفّاق يتخذ من دعوته إلى تجديد الخطاب الديني ستارا لهدم الإسلام ؛ إذ يدعى أن به نصوصًا مقدّسة من قبل ألف سنة يجب إلغاؤها .. لأنها -فى زعمه- تعادى الانسانية ، وتحض على قتل جميع البشر.. ولكن لأنه لا يملك أفكارًا واضحة مفهومة يمكن مناقشتها ، أقول: فلندعه مؤقّتًا مع الشعب الذى سيقرر مصيره عما قريب فى ثورة عارمة .. ولْنركِّز على هذه الدراسة.

يتساءل بيجوفيتش: ما مفهوم المعاصرة؟ .. هل هي مجموعة الأفكار والأهداف التي تحرك عالَمًا ما..؟ أم أنها واقع هذا العالَمْ الفعلي كما يبدو لنا..؟ أم هي الأمران معا..؟

لن تجد إجابة مباشرة على هذه الأسئلة ، إذ يبدولى أن بيجوفيتش لم يكن يريد أن يُغرق القارئ في مناقشات يغلب عليها الطابع الفلسفي ؛ خاصة أنه يعتقد أن مصطلح "المعاصرة" فى حدّ ذاته لا يعبّر عن حالة اتساق ؛ بحيث يمكن استخلاص جواب منطقي منه ، وإنما هو – كما يستخدمه أصحابه – يجمع بين أشياء متناقضة ؛ يعرضها لنا بيجوفيتش على الوجه الآتي:

فمن جهة: يشير المصطلح إلى ثورة تكنولوجية مستمرة مصحوبة بزيادة في رخاء المجتمع ، وانتشار التعليم ، والكلمة المكتوبة القائمة على عالمية الأفكار وسلميتها وإنسانيتها.

ومن جهة أخرى تنطوي المعاصرة الواقعية المُشاهدة أمامنا- على صراع الأفكار، وعلى مئات الملايين من الجوعى على ظهر هذا الكوكب الأرضي، ولا شك أن موسيقى (البوب) المجنونة وعبثية الأدب والفكر جزء من هذه المعاصرة !

وفي قلب هذا العالم المعاصر المُشاهد- وجدنا أيضًا اتجاهين متصادمين : حركة ماوتسي تونج في الصين بصرامتها وانضباطها وثورتها الثقافية المشهورة ، وحركة الانحلال الأخلاقية في الغرب .. هاتان الحركتان جزء لا

يتجزأ من هذه المعاصرة . ويسأل بيجوفيتش: أي واحدة من هاتين الحركتين يعتبر من المعاصرة حتى يمكن أن نقول إننا معاصرون قياسًا على ذلك..؟
وينتهي إلى أن العالم الذي نطلق عليه صفة المعاصرة ، ليس معاصرًا في حقيقة أمره ؛ فهو يفتقد إلى مقاييس عامة يُرجع إليها ، ولذلك يقترح أن نترك مصطلح المعاصرة على حاله ، ولا نسعى إلى تحديد مفهومه تحديدًا مثاليًّا لأنه في نهاية المطاف كما يقول: "ليست معاصرتنا الحاضرة – شأنها كشأن أي معاصرة ماضية – سوى [مزيج عشوائيّ] من الحقائق والأوهام التي تروج في عصر ما".
ويقترح علينا – بدلًا من ذلك – أن نحاول الإجابة على السؤال الأهم: هل جعل التطورُ والزمنُ الإسلامَ غير صالح..؟
بمعنى آخر: هل يقف الإسلام أمام الزمن، أم أن الزمن قد خلّف الإسلام وراءه ومضى في سبيله..؟!

قبل أن يشرع علي عزت بيجوفيتش في الإجابة على هذه الأسئلة ينبهنا إلى أنه لا يمكن الحديث عن معاصرة الإسلام بشكل عام .. ولكن يمكن التحدث عن حكمٍ معين من الأحكام الإسلامية أهو معاصر أم لا..؟ ، وهل هناك مبدأ من المبادئ الإسلامية يتعارض صراحةً مع احتياجات الإنسان وتطور المجتمع الإنساني..؟

ولنأخذ على ذلك مثلًا: وحدة الأُلوهية في الإسلام ؛ وهي قمة مبادئه وعموده الفقري .. يقول : شهادة "أن لا إله إلا الله" هي أساس الإسلام، يتعبد بنطقها كل مسلم عدة مرات في صلاته اليومية .. إنها تعني البشارة بقيام ثورة حقيقية لتحرير الإنسان من طغيان جميع الآلهة المزيفة التي تسلطت على حياته ، كما تعني إسقاط حق الكهنة ورجال الدين ورؤساء القبائل والأمراء والنبلاء ، وجميع أصحاب السلطة في التحكم في أرواح الناس وحياتهم .. وعَزْوِ هذه السلطة إلى الله وحده ..
لقد قضى القرآن بهذه الشهادة على الخضوع لأي شيء دون الله .. ولقد كانت هذه الآلهة المزيفة في الماضي تأتي على صورة أصنام أو ملوك أو فراعنة، ثم عرفناها حديثًا في صورة آباء الوطن ومنقذيه ، وفي صورة الزعيم الأوحد والرئيس الحكيم المعصوم من الخطأ .. كل هؤلاء يتظاهرون بأن الفضل يعود إليهم وحدهم في كل ما يتمتع به الناس [تحتهم] من حرية ورفاهية ، والحقيقة أنه لا يوجد رخاء ولا حرية بل إدعاء وسراب كاذب .

علينا إذن أن نتساءل: في هذا العالم المكتظ بآلهة كاذبة هل يبقى من دورٍ لرسالة الإسلام..؟ .. هذه الرسالة التي رفعت شعار عدم أُلوهية البشر وأن الإنسان لا يمكن أن يرقى إلى هذه المنزلة ؛ فهو مخلوق ضعيف يكفيه شرفًا أن يكافح من أجل أن يصبح إنسانًا حقيقيًّا .. بدلًا من سعيه لكي يجعل من نفسه إلهاً كاذبًا..؟!

يقول بيجوفيتش: إن هذا المبدأ الإسلامي الداعي إلى تحرير الإنسان من الآلهة الكاذبة سيظل مبدأً معاصرًا لا يعفو عليه الزمن أبد الدهر.

المبدأ الإسلامي الثاني أو القضية الثانية التي ستبقى عصرية إلى الأبد هي قضية المساواة والإخاء بين الناس جميعًا ؛ فقد ورد هذا المبدأ واضحًا محدَّدًا في آيات قرآنية كثيرة .. يسردها علي عزت بيجوفيتش واحدة بعد الأخرى، مما يؤكد لنا أن هذا المبدأ القرآني في المساواة لم يعد مجرد نظرية أو شعار ، بل أصبح جزءًا لا يتجزأ من الشعور والممارسة في واقع الحياة اليومية للشعوب المسلمة ، وفي ضوء هذا المبدأ انتفت الفوارق اللونية والجنسية والقومية ، كما انتفت فوارق النسب والمنزلة الاجتماعية وحيازة الثروة.

في هذا المناخ الإسلامي لا يحاول أحد تأكيد هذه المساواة لأن الجميع قد أصبحوا يرونها أمرًا فطريًّا طبيعيًّا، وفي أجزاء أخرى من العالم التي تحترم مبدأ المساواة بين الناس اكْتُسِبَ هذا المبدأ عن طريق التعليم والتربية حتى أصبح عادةً أو مظهرًا من مظاهر السلوك .
والفرق هنا هو أن هذا المبدأ نشأ وسَرَى في العالم الإسلامي عن صدق مطلق لا كذب فيه ولا تكلُّف ، يتنفسه المسلمون مع الهواء ويتلقونه جيلًا بعد جيل كجزء من فهمهم للعالم والتفاعل معه .

ثم يسأل : هل استطاع مفهوم المساواة بين الناس الهيمنة بنفس الدرجة والقدر على الرأي العام وعلى روح جميع الناس في العالم..؟
وإجابته هي: "لنترك جانبًا الأقطار المتخلفة في العالم لأنها – من جهة الحديث عن المعاصرة – لا تمثل شيئًا يذكر، ولنتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية وهي أكثر الدول المعاصرة تقدمًا ؛ فقانون الحقوق المدنية ومبدأ المساواة بين البيض والسود في الحياة العامة لم يصدر إلا سنة ١٩٦٥ م .. ومع ذلك لا تزال شريحة كبيرة من الأمريكيين تعارض أو تتحفظ على القانون إلى اليوم .. أما من ناحية التطبيق فهناك مقاومة دفينة لهذه المساواة ، حتى أن دعاة حقوق الإنسان من السود دُبرت لقتلتهم مؤامرات نسبت إلى المخابرات الأمريكية ، بهذه الطريقة تم قتل مالكوم إكس ومارتن لوثركِنْج.

ولا تزال انفجارات السود تنطلق في أمريكا من وقت لآخر احتجاجًا على المعاملة السيئة والنظرة الاستعلائية من السلطات البيضاء .
وقصة التمييز العنصري تجاه السود في جنوب أفريقيا وفي روديسيا قصة مشهورة .. وفي الأربعينيات من القرن العشرين كان العلماء الألمان يحاولون تقديم أدلة علمية تثبت عدم المساواة بين الناس ، لتدعيم دعوى تفوّق العنصر الجرمانيّ على بقية البشر.

أقول: لا تتوقف التفرقة العنصرية على التمييز في لون البشرة فحسب بل تظهر أعمق وأعمق في التفرقة القومية والطبقية والفكرية والسياسية والدينية ، ولا تزال توجد إلى اليوم دول يقوم نظامها على التمييز العنصري والتطهير العرقي والديني مثل إسرائيل ، وأبرز مثال على ذلك في أوروبا – بعد هتلر – حرب الإبادة الجماعية التي شنها الصربي سلوبودان ميلوسفيتش على مسلمي البوسنة أولًا (من سنة ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥م) ثم على مسلمي كوسوفا بعد ذلك ، وقد دخلنا في القرن الحادي والعشرين ولا تزال آثار هذا السفّاح العنصري ماثلة للعيان في البلقان .. ولقد ظلّ كبار المجرمين من أعوانه ، هاربين من العدالة وعلى رأسهم "رادوفان كراجيتش" و"راتكو ملاديتش" .

وقد فوجئنا في شهر يناير ٢٠٠١م بصديقة لهما تقدّم نفسها إلى محكمة جرائم الحرب الدولية فى لاهاي على أمل أن تعتبرها شاهدة لا شريكة في الإجرام ؛ إنها "بليانا بلافسيتش" التي شغلت منصب رئيس جمهورية صرب البوسنة بعد كراجيتش، وكانت من قبل تدرِّس علم الأحياء في جامعة سراييفو، ولأنها من أشد العنصريين غُلُوًّا دأبت في كتاباتها على تحريض الصرب ضد مسلمي البوسنة زاعمة أن جينات المسلمين البوشناق -وهم من الناحية العرقية سلافيون مثلها- قد بدأت تتغير بعد اعتناقهم الإسلام حتى تحولوا على مر الزمن إلى عنصر منحط !

مايزال بيجوفيتش يتساءل بمرارة واستنكار: هل بقى للإسلام دور في عالم ما زالت مساواة الناس فيه حلمًا بعيد المنال ، وما زالت التفرقة بين المخلوقات البشرية مظهرًا يصدم أعيننا وعقولنا كل يوم..؟ وهل المجتمع المعاصر في صورته هذه قد تجاوز مبدأ المساواة في الإسلام ، أم أنه على نقيض ذلك تمامًا، مجتمع رجعي يتقدمه الإسلام بمراحل ومراحل؟!

ثم يقول: "في معرض الحديث عن المعاصرة يربط الناس بها التقدم والثقافة والتحرر من الخرافة والأحكام المسبقة .. كما يلحقون بها الإنسانية والتسامح . ولكننا إذا نظرنا إلى العالم المعاصر نظرة فاحصة لوجدناه في حقيقة الأمر عالم رجعي إلى أبعد حدود الرجعية" .

عالم يطفح بمشكلات نفسية واجتماعية معقدة تستعصي على الحلول ، رغم التقدم الهائل في العلم و التكنولوجيا.. ويناقش في هذا المجال حقائق إحصائية في أكثر المجتمعات الغربية تقدما ، تكشف عن استفحال مشكلات الطلاق التي بلغت ٥٠% من حالات الزواج في بعض المناطق ، وارتفاع معدلات الجرائم بين الشباب .. ناهيك عن جرائم الإدمان على المخدرات وتفشي حالات الانهيار العصبي وجرائم القتل والسطو المسلح.

ويتساءل: هل يوجد من أمل في قدرة الحضارة الغربية المتقدمة وما حققته من زيادةٍ في التعليم وتحسُّنٍ في الأحوال المادية ومستوى المعيشة- على وضع حدٍّ لهذه المشكلات التي لا نهاية لها..؟

وكانت إجابة علي عزت بيجوفيتش القاطعة: أنه "لا أمل ما دامت هذه التقدمات خارج قوانين الدين والأخلاق".

فهل بقيت هناك كلمة يمكن أن يقولها الإسلام لمثل هذه المجتمعات الرجعية التعيسة؟

يعرض علينا بيجوفيتش – إجابةً على هذا السؤال – واحدًا وثلاثين آية من القرآن الكريم تخاطب العقل والوجدان الإنساني أبلغ خطاب ، تتناول هذه المعضلات من جذورها فتهز أعماق الضمير الإنساني وتفتح أمام العقل والقلب آفاقًا فسيحة للتخلص من هذه الشرور .

ثم يُعقِّبُ قائلًا: " يمكننا مواصلة سرد آيات قرآنية رائعة في هذا المجال ولكنني أريد أن أسأل: ألا تعطيكم هذه الآيات انطباع المعاصرة ..؟ .. هذه الآيات كانت تتحدث منذ أكثر من ألف عام عن مشكلات الإنسان والمجتمع التي نعانيها الآن ألا يكفي هذا دليلًا على المعاصرة..؟!

ينتقل بيجوفيتش إلى نقطة أخرى يعرض علينا فيها نماذج من المعاصرة لا يمكن أن يجاريها الإسلام ، ويقول: هل من واجبنا عندئذ الإقرار بعدم معاصرة الإسلام فيها..؟

في هذا المجال يذكر دولة معاصرة تقول عن نفسها أنها متقدمة، ولا يحدد اسمها، – وقد تكون هذه الدولة يوغسلافيا الشيوعية .. يقول: في هذه الدولة تطارد السلطات الناس بسبب عقيدتهم، والسبب أن هناك عقيدة رسمية للدولة من يتجرأ على اعتناق عقيدة مخالفة لها فإن مصيره السجن لا محالة ؛ حيث يؤكد بعضهم [يقصد الماركسيين] أن التقدم يمضي نحو التوافق والتماثل أي نحو تقييد استقلال الفكر والشخصية وبالتالي قمع الحرية الإنسانية ، فإذا اتخذنا هذا الموقف مقياسًا للإسلام فلابد أن نحكم عليه بأنه دين رجعي غير عصري ، فقد أعلن الإسلام مبدأ الحرية الدينية {لا إكراه في الدين} ومن ثم ساند حرية الاعتقاد وطبق هذا المبدأ في حياة الناس والتزم به .

النموذج الثاني يتصل بمشكلة المخدرات والمُسْكِرَات التي يحرّمها الإسلام تحريمًا قاطعا .. ففي فرنسا – وهي مثال للدولة العصرية المتقدمة – يستهلك الناس أكثر من بليوني لتر من الخمور في العام ، وتنتج مصانع الخمور أكثر من خمسمائة نوع ، وهناك ما يسمونه ثقافة تعاطى الخمر.. !

ومن علامة رُقِيِّ الطبقة التي ينتمي إليها الشخص أن يستعرض معرفته بأكبر عدد من أسماء الخمور ، وأن يتذوقها ويكون له رأي شخصي في مذاقها.. ويستطيع أن يتحدث عن الفروق الدقيقة في نكْهتها .. أما المسلم الملتزم فهو لا يتناول الخمر ولا يعرف أسماءها ولذلك فهو جاهل ويبدو بربريًّا متخلفًا في هذا المجتمع المعاصر !!

فى الوقت نفسه يكشف لنا بيجوفيتش عن موقف متناقض للإنسان المعاصر حول القضية نفسها ؛ حيث يقول: هذا الإنسان المعاصر شديد الغرابة تستغرقه الوظيفة التي يؤديها فتعميه عن بقية الوظائف الأخرى ؛ فهو من ناحية ، يطوِّر صناعة الخمور ويزيد من إنتاجها ويحسِّن في أنواعها ويُعْنَى بجودتها .. وفي وظيفة أخرى يحاول أن يطبق بكل دقة الأساليب العلمية في اتجاه معاكس ، لإثبات أضرار الخمر ، ويحذر من أخطارها .. وستقرأ لأشخاصٍ من هذا الفريق أرقامًا مخيفة عن زيادة أعداد مدمني الخمور، وأعداد المعاقين من جراء تناولها، وستعرف منهم معلومات مؤكدة أن ٥٠% من الجرائم وحوادث المرور ناتجة من تعاطي الخمور !!

ولذلك يعلِّق بيجوفيتش قائلًا: "إن هذا الموقف المتناقض إذا كان يدل على شيء فهو يدل على سخف الإنسان المعاصر .. هذا الإنسان لم يعد يحيا حياة حقيقية وإنما هو يؤدي بعض وظائف الإنسان فحسب".

وينتهي إلى هذه النتيجة: "إذا نظرنا إلى السلطان المطلق للخمور على المجتمعات المعاصرة فجيب أن نقرّ بأن الإسلام من هذه الناحية رجعي وغير معاصر" ..!

ومن ناحية أخرى إذا تذكرنا المحاولات التي قامت بها بعض الدول لتحريم الخمر، ابتداءً بأكثر الدول تقدمًا وهي الولايات المتحدة ؛ التي حرَّمت صناعة الخمر ونقْلِها تحريمًا مطلقًا خلال ثلاثينيات القرن العشرين ، وهي تجربة باءت بالفشل الذريع .. وإذا تذكّرنا المنع الجزئي للخمر في الدول الاسْكَنْدِنافيّة ، وإلى التحديد الزمني والعمري لتناول الخمور في دول غربية أخرى – إذا تذكرنا هذه المحاولات الفاشلة لأدركنا أن لدينا مبررات كثيرة للجزم بأن الإسلام بأحكامه وتأثيره في المجتمعات التي اعتنقته قد سبق العالم المعاصر بقرون ، ولتبين لنا أن العالم المعاصر في قضية الخمر ليس معاصرًا بأي حال !

وهناك أمثلة أخرى على هذه الرجعية: فإذا تناولنا بالدراسة الحقائق والأرقام التي تتصل بالإنْفاق السفيه على مواد التجميل التي تصل إلى عدة بلايين من الدولارات ، لوجدنا أن هذه المبالغ تكفي لإطعام ما يزيد على سبعمائة مليون إنسان جائع في هذا العالم .

يقول بيجوفيتش: إذا كانت هذه هي المعاصرة – كما يفهمها ويتقبلها الكثيرون – فإن الإسلام – قياسًا عليها – غير معاصر؛ لأن روح الإسلام تتطلب البساطة والتواضع والتضامن .. ويحرّم الإسلام الترف السفيه ، ويفرض حقوقًا للفقراء في أموال الأغنياء ، واجبة الأداء بمقتضى الشرع ؛ فالإسلام يرى في استفحال الترف والبذخ وسط الفقر والبؤس أكبر الشرور فى هذا العالم .. ويعتبر ذلك من أخطر عوامل تدمير المجتمعات وتمزيق وحدتها .

وهذا عند بيجوفيتش معيار دقيق لصلاحية النظام ومقياس للقيم وللموقف الأخلاقي والاجتماعي الذي يمثله أي نظام للحكم.

myades34@gmail.com

(نشرت بجريدة الشعب الجديد – ٢٨مارس ٢٠١٦م)